



التاريخ الشفوي لقبيلة السيد

كما رواه صالح السيد

1. الأب يترك مصر وقيم في النقب

إنه المستوطن الأول - أبو القرية، الرجل الأول لعائلة السيد. كان اسمه السيد.

يحكي شيوخ القرية عن رجل بالغ، له عائلة وعدد من الأولاد قد اصطحبهم معه من مصر قبل حوالي مائتي عام. بحسب القصص التي سمعناها أجبر السيد على ترك موطنه مصر عقب نزاعات مع عائلته. قُتل أحد إخوته مما أجبره على الهجرة من بلده وبلد إخوته والفرار إلى بلد آخر.

غادر مصر مع عائلته الصغيرة - زوجة وبضعة أطفال - وانتقل إلى أرض إسرائيل. هنا كان عليه أن يواجه الحياة ويتكيف مع السكان ومع أشخاص لم يألفهم. تقول الحكاية بأنه قد استوطن أولاً منطقة العريش. إلا أنه قرّر ترك العريش، بالرغم من أن بعض أفراد عائلته بقي فيها، ووصل إلى منطقة في ضواحي بئر السبع. من الجدير أن نذكر معلومة هامة تخص هذا الرجل الأول المدعو "السيد" وهي أنه، على ما يبدو، كان أعمى أو لا يرى جيداً. كانت لديه حكمة قد منحتها إياها حياته في مصر، كذلك كان يملك بعض المال. هذا كل شيء - لكن، بالعودة إلى الوراء، نعرف بأنه في حال حدوث عدا، من يترك منطقته لن تُتاح له إمكانية العودة إليها مرة أخرى. أخذ كل المال الذي امتلكه وخطّط أن يستقرّ في مكان ما فيشترى قطعة أرض كي يؤسس عليها حياته مع عائلته في منطقة بعيدة جداً عن مكان العدا.

بحسب الحكايات، كان يتفحص الأرض في كل مكان يصل إليه، هل هي صالحة أم لا، وذلك لأن مصدر الرزق كان الزراعة، والزراعة تتركز قبل كل شيء على الأرض. أينما ذهب كان يحفر بيديه حفرة صغيرة في الأرض، مُخرِجاً التربة من تلك الحفرة ومن ثمّ يُعيدها من جديد إلى مكانها. بما أنه أعمى كان يتحسس التربة بيديه، ويفحص بالتالي إن كانت هذه الحفرة الصغيرة قد امتلأت من جديد، بمقدار أكثر أو أقل من الأول. هذا ما نعرفه عن الأرض: عندما تحفر حفرة تتفتت التربة وتتغير كثافتها. عند إعادة التربة المستخرجة إلى مكانها ستمتلئ أكثر قليلاً أو أعلى مما كانت عليه في السابق. هذا هو المعيار المستخدم في قياس خصوبة الأرض أو عدم خصوبتها وكذلك في تقييمها. لهذا السبب بقي في منطقة وادي بئر السبع. قام بفحص خصوبة الأرض فوجدها مناسبة له. لقد ناسبه المكان هنا.

2. الإقامة في أرض جديدة

على ما يبدو أقامَ بين قرى وقبائل وسكان كانوا غريبين عنه. لم يعرفهم، إلا أنه بدأ بإقامة روابط معهم، مثل لاجئ يأتي إلى مكان جديد. تدريجيًا أخذ يربّي أولاده وتزوج نساء من التّواحي البعيدة بعض الشّيء عن المنطقة. لم تشأ القرى والقبائل المحليّة تزويج بناتها له لأنّه اعتُبر لاجئًا، ممّا اضطرّه أن يتزوج نساء من مناطق مثل غزّة، أي أبعد قليلًا من المناطق المجاورة لنا في بئر السّبع. لقد تزوّج من عدّة نساء. أمّا زوجته الأولى التي قدّمت معه من مصر، فنحن في الحقيقة لا نعرف اسمها، أو ماذا حصل لنسلها من العائلة. بالنّسبة لأولئك اللاتي تزوّجهنّ هنا من المناطق المجاورة لبئر السّبع، فقد وُلدَ له منهنّ أولاد وبنات صاروا آباء وأمّهات، بل أجدادًا وجدّات لأجيال اليوم. وُلدَ له من تلك النّسوة عدّة أولاد ربّاهم على حبّ الأرض وشراء الأراضي وما إلى ذلك، كي يتمكّنوا من الحياة بين القبائل.

كان السيّد ينجح كلّ مرة في شراء المزيد من الأراضي، من القبائل المجاورة، إلى أن مات، فاستمرّ أبناؤه على هذا التّهج. لقد عرفَ بأنك تحتاج إلى مكان ما، وأرض هناك، كما تحتاج إلى أشياء مختلفة كأبار المياه والبنائيات والزّوجات والعائلات والبيوت وما إلى ذلك. هذا هو التّهج الذي أحضره معه من مصر فتبناه أولاده هنا، والبنائيات التي بنوها هنا تشهد على ذلك. هو نفسه لم يبنِ أيّ بناية هنا. من الجائز أنّه قد أنشأ الآبار، ولكن لا يوجد عندنا أيّ أثر يدلّ على بُنى أساسيّة أيّا كانت. أمّا أولاده فقد أنشأ كلُّ واحد منهم بناية أو أكثر، إضافة إلى الآبار التي هي الأهم والأكثر حيويّة. عاشت العائلات في هذه البنائيات التي شكّلت بدورها أماكن سكّين للدواجن والمواشي والدّواب أيضًا، إضافة إلى تخزين محصول الحنطة والشّعير فيها. كان التّخزين طويل المدى من الصّيف إلى الشّتاء.

كانت سمعة السيّد طيّبة وله صلوات جيّدة، وقد اعتُبر رجلًا ثريًا في عيون من اتّجر معهم. حاز على احترام العائلات والقبائل المجاورة، وكذلك احترامه الأشخاص والتجار من غزّة. كان معبر غزّة-بئر السّبع شائعًا، كأهمّ منطقة واحدة، فقد كان الاتّصال مباشرًا. صالح، حسن، محمّد، ثابت وعبد السلام هم أول الأولاد في سلالته. اضطروا هم أيضًا إلى الزّواج من خارج القرى المحليّة، ومن خارج محيطهم؛ لقد تزوّجوا نساء من غزّة أو رفح اللتين تعتبران الأقرب على الطريق الممتدّة من محلّ سكناهم.

3. الصّم الأوائل وإنشاء لغة الإشارة البدويّة لدى قبيلة "السيّد"

اعتقدُ بأنّ أول طفل أصمّ قد وُلد حوالي العام 1930. قبل ذلك لم يكن هناك صمّ ولم يعرف النّاس ما هو الصّم كما لم يفهموا طبيعة الأصمّ. في ذلك الوقت شكّل السكّان مجموعة صغيرة، ليست كبيرة جدًّا.

لذلك عندما وُلِدَ الطِّفْلُ الأَصَمُّ الأَوَّلُ، كان على العائلة والأهل والإخوة إيجاد طريقة للتواصل معه. أرادوا أن يتواصلوا معه ويحكوا عن أشياء تعاملوا معها بلغتهم المحكيّة الخاصّة بهم. كلّ مصطلح وكلّ كلمة أرادوا توصيلها إلى الأَصَمِّ نقلوها له بما يتناسب مع طريقة فعل ذلك الشّيء. على سبيل المثال، في حال كلامنا عن القِطِّ، كيف نَميِّز بين القِطِّ والكلب؟ ليس الاختلاف كبيراً. لكنّ التَّبَاح يميِّز بينهما؛ فالكلب ينبح بينما القِطُّ لا. بلغة الإشارة قاموا بفعل حركة باليدين تدلّ على التَّبَاح بهدف تفسير أنّ المقصود هو الكلب، كأنّ الكلب يفتح فمّه وينبح نباحاً مُتواصلًا. القِطُّ يلعقُ الحليب، وهذا ما يميِّزه عن الكلب. فكانت الإشارة، عن طريق استخدام اليدين، تقليدًا للَعَقِ القِطِّ للحليب. هكذا استطاعوا أن يفسِّروا للأَصَمِّ بأنّ المقصود هو القِطُّ وليس الكلب، أو بالعكس. أنجبت العائلة ذاتها ثلاثة أطفال صَمِّ آخرين، كان واحدًا منهم هو أبي. تدريجيًّا نجحوا في تحسين اللغة، فزادت المفاهيم والمصطلحات في كلِّ مرة، حتّى شكّلت معًا بُنية واحدة صالحة للتواصل ولغة غنيّة بالكلمات العمليّة. كلّ شيء أو مفهوم قد نَمَّت الحاجةُ إليه وجدوا له إشارة تناسبه.



قِطِّ



كلب

مع ازدياد عدد الصمّ حوّلوا هذه الإشارات الأولى إلى لغة إشارة محليّة في قبيلة "السّيّد". سيطر استخدام هذه اللغة عند الصمّ كما عند غير-الصمّ، فكانت الإشارات كلّها واضحة لأنّها جاءت من عالمهم القريب الذي عرفوه. ربّما كان إيجاد إشارات تعبّر عن المشاعر أو المفاهيم المجرّدة أمرًا صعبًا. حتّى اليوم ليس هذا الأمر سهلًا بالنسبة لنا. قد يكون بإمكان لغة الإشارة الإسرائيليّة التعبير عن هذه الأمور، ولكنّ الأمر صعب في لغة الإشارة التابعة للسّيّد، حيث لا توجد كلمة مناسبة تمامًا لكلّ مصطلح مجرّد. على كلّ حال، تحوّلت هذه اللغة من مجرّد مجموعة كلمات يتمثّل فيها كلُّ مصطلح بإشارة ما، إلى منظومة لغويّة شاملة للصمّ. بالطبع لم تشمل هذه اللغة كلّ المصطلحات التي نريد أن نعبر عنها في أيّامنا، إلّا أنّها خدمت الحاجات الصّوريّة لأبناء تلك الفترة. مع تنالي الأجيال تطوّرت هذه اللغة، وأُضيفت إليها كلمات جديدة تبعًا

للحاجة، أو بتأثير المجتمع والحياة، أو وفق التجديدات التي رأوها واختبروها - هكذا أبداعوا لهم كلمات جديدة.

4. المفردات الأولى في قاموس لغة الإشارة البدوية لدى "السيد"

بما يتعلّق بالأحداث المألوفة اعتاد أبناء "السيد" أن يشتقوا الكلمة من سلوك الشخص أو ممّا يقوم به ويفعله. ما الذي أقصده بذلك؟ على سبيل المثال، الأعياد مثل رمضان والأضحى. كيف يمكنك التمييز بين هذين العيدين؟ رمضان، مثلاً، يعني الصّوم. الصّوم معناه عدم الأكل وعدم الشّرب. كيف يمكن أن تُبيّن للأصمّ بأنه لا يجب أن يشرب ولا أن يأكل وما شابه ذلك؟ هناك إشارة تدلّ على الصّوم تتلوها مصافحة. المصافحة عادة دينيّة واجتماعيّة، كأن تصافح أقبائك، أبناءك، بناتك وعائلتك في مثل ذلك اليوم وتهنئهم قائلاً: كلّ عام وأنتم بخير. في ذلك إشارة إلى رمضان.



المصافحة



الصوم

رمضان:

الأضحى هو العيد الآخر في السنة. تشير كلمة الأضحى إلى "الأضحية"، ممّا يعني يوم النحر، فيه يُذبح خروف. كيف يمكن تعريف ذلك؟ مصافحة أخرى مقرونة بإشارة دالة على الذّبح. هناك من يضيف إلى ذلك إشارة تدلّ على "خروف". هكذا تكون الإشارة إلى "الأضحى" عن طريق حركات ثلاث هي: "خروف + ذبح + مصافحة".



مصافحة



ذبح



الأضحى: خروف

من الأمور النموذجية الأخرى التي لها علاقة بهم نذكر أيام الأسبوع بارتباطاتها الخاصة عندهم. أيام الخميس هي أيام حافلة بالأسواق بشكل خاص. ما الذي يبيعونه في هذه الأسواق؟ بالإمكان بيع كل شيء، ولكن مَنْ يملك خروفًا يريد بيعه أو مَنْ يريد شراء خروف عليه أن يأتي إلى السوق. إذن، كيف ميّزوا يوم الخميس عن غيره من الأيام؟ سُمّي الخميس بيوم "السوق + الخروف".



خروف



سوق

الخميس:

سُمّيت أيام الإثنين كالتالي: "سوق + ليس كبيرًا جدًا"، وذلك لوجود الناس والمنتجات أو السلع، لكن لا توجد خراف. دُعِيَ الثلاثاء على الشكل التالي: "سوق + ليس كبيرًا جدًا + بعد". الأربعاء: "سوق + خروف + قبل". الإشارة إلى يوم الجمعة هي "الصلاة". الإشارة إلى السبت تكون عن طريق إيماءة تبيّن أنّ كل شيء "مُقفل". فكلّ الحوانيت تكون مقفلة أيام السبت، كما تتوقف حركة المواصلات العامة، وما إلى ذلك.¹ هذا الأمر قد دخل لغتهم. لا أعرف كيف كان يمكنهم الإشارة إلى السبت قبل نشوء دولة إسرائيل، بالطبع بطريقة مُغايرة، ولكنني تعرّفتُ على السبت عن طريق هذه الإيماءة "مُقفل". إذن، كيف أشاروا إلى

¹ يوم الجمعة هو يوم العطلة ويوم الصلاة بالنسبة للمسلمين، يقابله في ذلك يوم السبت عند اليهود. بالنسبة لليهود، السبت يوم عطلة، وفي إسرائيل لا توجد مواصلات عامة ولا حركة تجارية في هذا اليوم.

يوم الأحد؟ "يوم مُقفل + ليس + بعد"، وهذا يعني: "ليس السبت، إنما اليوم الذي يليه". بهذه الطريقة توصلوا إلى التعبير عن أيام الأسبوع السبعة!



ليس كبيرًا جدًا



سوق

الاثنين:

تمثّل الإشارة إلى الغلال بالفعل الذي يقترن بكلّ نوع منها. تُظهر الإشارة إلى "القمح" كيف يستخدمون أيديهم كي يحصدوا القمح.² يُشار إلى كلمة "بندورة" عن طريق إماءة تدل على العصر، حيث لم يمتلكوا سكينًا كي يقوموا بإعداد السلطة، لذا كانوا يقطفون البندورة من الحقل ويُعدّونها عن طريق عصرها بيديهم هكذا.

بالطبع، كانت هناك حاجة ماسّة لإيجاد إشارات تدلّ على أفراد العائلة مثل الأب، الأم، الأخ، الأخت، فهم يحتاجون كثيرًا إلى الكلام عنهم وذكرهم بلغة الإشارة. يُشار إلى الأب بواسطة "الشّارب"؛ و"الشّارب" يُستخدم كذلك للإشارة إلى "الرجل". هكذا تكون الإشارة إلى "الأمّ، هي نفسها المستخدمة للإشارة إلى النساء. لا أدري إن كان لذلك علاقة مع ما تضعه النساء على جبينهنّ، وهناك من استخدم كذلك إشارة تدلّ على حلقة توضع في الأنف. شيخ القرية هو شخص هامّ، ولذا فإنّ الإشارة إليه تدلّ على أنّه فوق الجميع.³ الإشارة بالتالي هي "شيخ (حيّة) + قبيلة + فوق". إذن احتاجوا أحيانًا إلى ثلاث أو أربع إشارات كي يفسّروا كلمة واحدة، وذلك بهدف أن يفهموا جيّدًا ويُعرّف ما يوّدون قوله بوضوح.

الكثير من النّاس القادرين على السّمع هنا يعرفون لغة الإشارة، لكنّ معرفتهم لها ليست بالدرجة ذاتها عند الجميع. أولئك الذين يفهمون اللغة بشكل أفضل هم الذين يعيشون مع الأصمّ، كالأبناء والزّوجات والإخوة الذين عاشوا مع الأصمّ مدّة أطول وكانوا الأقرب منه. يمكن القول إنّهم يعرفون الإشارات بالتفصيل.

² بعد ذلك صارت الإشارة الخاصّة بكلمة "الحصاد" لها معنى "الستنة". انظر صفحة 65.

³ انظر صفحة 35 بخصوص الإشارة إلى "الشيخ".

أما بقيّة النَّاس الذين يعيشون بعيدًا عن الأصمِّ نوعًا ما، فإنَّهم يعرفون الإشارات بشكل عام؛ فعندَ مشاهدتهم لقصّةٍ بإمكانهم أن يفهموا جوهرَ ما يقصِّدُ الأصمُّ أن يقوله، لكن دونَ التّفصيل.

في سنوات الثمانين من القرن الماضي، بدأت لغة الإشارة الإسرائيليّة بالدخول إلى حياة السكّان ممّا أدّى إلى نوع من المزج بين لغتي الإشارة: المحليّة والإسرائيليّة. هذا الأمر شبيهه بأن تتحدّث جزئيًّا بالعربيّة وجزئيًّا بالعبريّة. كلّ جانب يبدو غير واضح إن كان يستخدم لغة الإشارة الإسرائيليّة أم أنّه يستخدم لغة الإشارة البدويّة للسّيّد، ولذلك لا يفهم كلّ واحد الآخر بشكل تامّ، بل بما يقارب الثمانين بالمائة. في أيّامنا هذه هناك مجموعة قليلة من القرويّين الذين يستخدمون اللغة الأصليّة المحليّة للسّيّد. معظمهم في الأربعين أو الخمسين من عمرهم. هؤلاء هم الأشخاص الذين يعرفون اللغة.